

الإهداء:

إلى الأستاذ والمربي والمعلم والقُدوة والصديق والأخ الشيخ المجاهد محرم عارفي رحمه الله...

لم اعرف أن الله من عليّ بالحج معك إلا بعد أن انقضت الرحلة ثم انقضى العمر الطاهر... عسى أن يكون جهدي الكفاف لطباعة ما كتب عنك يا أستاذي ذرة ماء في بحر ما علمته للشباب المسلم في لبنان...

نعم

المقدمة:

منذ سنين عديدة قرعت مسامعي كلمة قالها أحد الأفاضل وبقيت لأهميتها عالقة في ذهني أستحضرها من حين إلى حين، قال حفظه الله:

"إن تجربة الداعية، مهما كانت متواضعة، ليست تجربة شخصية بل هي جزء من تاريخ الأمة، وصفحات تضاف إلى سجل دعوتها، لذلك لزماً على كل داعية أن يكتب خلاصة تجربته لتكون زاد خير لإخوانه من بعده..."

هذه الكلمات حق لها أن تسطر بماء الذهب لأهميتها، ولعل السابقين من أئمتنا انتبهوا لهذه الحقيقة فجردوا أقلامهم وسطروا المجلدات التي ضمت تراجم الحفاظ، القراء، الفقهاء، المفسرين وغيرهم... غير أن هذه الهمة ضعفت كثيراً كما يشهد حاضرننا، فصار المرء يجد عشرات التراجم لأناس من أهل الفن!! ولا يكاد يجد ترجمة لإمام مجدد أو عالم مجتهد أو داعية فاضل... وقد أشار الشيخ محمد الغزالي إلى هذه الحقيقة بقوله:

"نسأل أخيراً: هل هناك تاريخ للدعاة الذين ذكرنا طريقتهم وأوضحنا واجبهم وشرحنا فاندتهم للإسلام وأهله؟؟
إنهم كثير في ماضينا وحاضرنا، بيد أنهم لا ينظمهم سجل ولا يضبط مآثرهم كتاب... وما أحرانا وأجدرننا باستدراك هذا النقص".

وتوفي الشيخ محرم عارفي رحمه الله تعالى، واجتاح الحزن أفئدة محبيه، وتركت وفاته أثراً بالغاً أنسانا فرحة عيد الفطر وبهجته. وفي خضم الإثارة الإعلامية لتكريم الشيخ الفقيد تتصل إحدى الأخوات الفاضلات بالإذاعة وتقول بصوت كادت غصة الحزن أن تخنقه:

"لا تجعلونا ننسى الشيخ محرم، ذكرونا به دائماً، داوموا على بث خطبه ودروسه..."

ومضت الشهور سريعاً، ومع انقضاء كل شهر كنت أشعر —كما يشعر الكثيرون— أن ذكرى الشيخ محرم بات وهجا يخبو شيئاً فشيئاً... وما يدرينا لعل السنوات القادمة ستعمل على طمس ذكرى الشيخ ومواقفه الجريئة وصيحاته التي أيقظت الراقدين وزلزلت كيان العدو والمتعاملين.

لذلك عزمت —بعد الاستئذان من أقارب الشيخ— أن أستعين بالله العظيم على وضع دراسة أسطر فيها سيرة الشيخ محرم عارفي وتجربته لتكون أولاً: عنوان وفاء للشيخ المجاهد الذي أعطى الدعوة الإسلامية الكثير الكثير.

ولتكون ثانياً: سطور تجربة رائدة نتعلم منها الإقبال على القرآن والعمل للدعوة والصمود في وجه الأعداء والعملاء رغم الاعتقال والترويع... والثبات على الحق حتى الوفاة... هذا غيض من فيض تعلمناه من الشيخ محرم في حياته وواجب علينا أن نراجعته ونلتزمه ونحملة للأجيال القادمة بعد وفاته والله الموفق.

محمد عبد الله أبو زيد

غرة رمضان 1421

البداية:

صيدا الحبيبة، هذه المدينة التي أدارت ظهرها لجهة الشرق مستظهرة جملة من الهضاب والجبال الشامخة المتعالية نحو السماء، واستقبلت هذا البحر اللجي الذي تراه هادناً في كثير من الأحيان، لكنك أيضاً قد تراه في بعض الأحيان هانجاً ثائراً يلقي الرعب في قلوب الذين يفكرون في مواجهة موجه المتلاطم أو تحدي عبابه. لعل هذه المدينة الواقعة بين الجبل والبحر تأثرت بهما أشد التأثر، فأهلها الموسومون بالدعة والوداعة والطيبة كانوا على مر التاريخ ثورة عارمة في وجه المحتلين والمعتدين الذين يريدون النيل من عنفوانهم أو عزتهم وكرامتهم، كأنهم تعلموا من الجبال معاني الصمود والشموخ، وأخذوا عن البحر روح الثورة والتحدي.

هذه هي الصبغة العامة لأبناء صيدا، لكن لعلك تجد أن هذه الصفات متفاوتة إلى حد ما بين إنسان وآخر. لذلك فإننا نجد من بين أهل مدينتنا نماذج من الناس تميزت بين أقرانها، ولمع نجمها في سماء العزة والرفعة، وذاع صيتها في أفاق التحدي والثورة، فصارت أسماؤهم مرادفاً لمعاني الصمود والجهاد ضد المعتدين والطغاة. وما هذه الصفحات إلا سيرة لواحد من هؤلاء العظام، إنها سيرة الشيخ محرم عارفي، ذلك الرجل الطيب، الوديع، الهادئ في فترات الرخاء والاستقرار، لكنه أيضاً القائد الثائر، والمجاهد الصامد في زمن الشدة والتحدي. إنها سيرة أحد أبناء صيدا، مدينة الكرم والحفاوة، ومدينة الثورة والتحدي والصمود.

الطفولة:

في العاشر من كانون الثاني من العام 1947 علت في ربوع صيدا صرخة مولود هو الثالث بين إخوته وأخواته التسعة، هذه الصرخة التي ظلها كل من شهد حدث الولادة وقتها، أنها صرخة عادية كصرخة أي مولود، جاءت الأيام لتقول، بل هي صرخة ستسهم في قادمات الأيام في صون كرامة المدينة، وتضيف لبنات أخرى يعلو بها صرح العزة والصمود.

كانت طفولة محرم عادية جداً، فالأسرة التي ينتمي إليها تعد من الأسر الفقيرة، وهي التي تحصل قوت يومها من تعب وعرق الحاج خير الدين، ذلك الرجل البسيط الذي ارتضى لنفسه أن يقضي يومه يعمل ويكد ليؤمن لأهله العيش الكريم، فاحترف النجارة، وجعل منها سبباً لرزقه ورزق زوجته وعياله.

وهناك في المنزل الصغير المتواضع المجاور للمسجد العمري الكبير، قضى محرم الصغير أيام طفولته الأولى. صحيح أن الأحوال المادية والظروف الصعبة حرمته من كثير من الأشياء التي يحتاجها الأطفال، لكن رعاية الله عزوجل، وحب الوالدين والأهل، كانا الزاد والعتاد الذين تسلح به محرم لمواجهة الحياة الصعبة التي قدر له أن يخوض غمارها.

النشأة:

لم يستطع محرم الناشئ أن يتابع التحصيل العلمي من خلال الدراسة المنهجية في المدارس، فقد اضطر لترك المدرسة وهو في المرحلة الابتدائية وذلك في سبيل تعلم حرفة تساعد على كسب قوته ومساعدة عائلته.

من وقتها صار محرم اليافع سباكاً، كان يشارك كعامل بسيط في ورشة لتصليح الأدوات الصحية. وكان من مستلزمات هذه الحرفة أن يستعمل العامل المطرقة والإزميل مستعيناً بعزمه وقوته لتحطيم الحجارة، والكشف عن أنابيب المياه المستترة في جوف الجدر. ولعل الشيخ محرم صاحب الجسد النحيل اكتسب من هذا العمل خصلة الجلد والثبات ومتابعة الضربات تلو الضربات حتى يفتت الحجارة التي تقف في طريقه... بعد ساعات العمل المجهد، وفي أوقات الفراغ، كان محرم الشاب يلتجئ إلى المسجد العمري الكبير وغيره من مساجد صيدا، هناك كان يجد راحته وسواه، لقد كان قلبه معلقاً بالمساجد...

كانت المساجد في الخمسينات ومطلع الستينات من القرن الماضي أشبه بمأوى العجزة، فأنت إن تأملت روادها، وجدتهم جميعاً شيوخاً وهنت عظامهم، وتقوست ظهورهم، وفقدوا عنفوان الشباب وحيويته، وما قد صارت حياتهم على وشك الإنقضاء، فأثروا حسن الختام، وكان المسجد ملجأهم في أيامهم الأخيرة...

لكن شجرة الإسلام الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، بدأت تزهر من جديد، وبدأت البراعم الغضة الطرية تنمو وتكثر معلنة أن فوجاً جديداً من ثمار الخير على وشك النضوج، نعم! لقد أنجبت رحم الإسلام جيلاً جديداً من الشباب ليملاً هذه المساجد ويضخ في أرجائها إكسير الحياة والعنفوان، وكان محرم الشاب أحد هؤلاء الشباب...

في تلك الفترة ظهر تعلق الشيخ بالمساجد بشكل صارخ لا مرأى فيه، فكان ينام في المسجد الليلي الطوال، وكانت بالنسبة له المنندى والمبيت ومكان الطعام والسمر فضلاً عن العبادة والطاعة...

طلب العلم النافع:

وكانت الأم الطيبة إذا ما افتقدت ولدها الشاب علمت أنه في المسجد فكانت ترسل أخاه الصغير لتستدعيه... هناك في المسجد تحول محرم إلى طالب علم نجيب، وراح يحاول تعويض ما فاتته من تحصيل علمي بسبب تركه المدرسة، وكان علماء البعثة الأزهرية خير معين له، لذلك اجتهد في ملازمتهم والأخذ عنهم. ومن العلماء الأفاضل الذين علقت أسماؤهم في ذاكرة شباب ذلك الجيل: الشيخ محمود الباز رحمه الله والشيخ أحمد الدومي، ذلك العالم الضريع الذي كان محرم الشاب يلزمه لأوقات طويلة ليعينه على قضاء حوائجه من جهة -لما به من عمى- وليأخذ عنه العلم النافع والهدي القويم من جهة أخرى...

وكما انتفع محرم الشاب من علماء البعثة الأزهرية، كذلك انتفع من علماء المدينة فكان يحضر دروس الشيخ عمر الحلاق رحمه الله تعالى، والشيخ عقل حمادو رحمه الله، كما كان يجلس بين يدي الشيخ القارئ موسى نضر والحاج محمد أبو زيد ليحفظ القرآن ويتقن تلاوته على أيديهم رحمهم الله جميعاً...

وبعد صلاة الفجر من كل يوم كان طالب العلم النجيب محرم ينطلق سيراً على الأقدام إلى منطقة البستان الكبير ليجلس بين يدي الشيخ إبراهيم غنيم ويأخذ عنه الفقه الشافعي... نعم، لقد شهدت تلك الفترة بدايات تكون شخصية محرم عارفي العلمية ليكون بعدها الشيخ محرم، لا محرم الشاب الملتزم فقط...

الإلتحاق بالمقاومة الشعبية:

مع إطلالة العام 1967 وحدث النكبة الأليمة التي كان من آثارها ضياع ما تبقى من فلسطين واستباحة اليهود لمقدسات المسلمين، بدأت توجهات محرم الشاب تتبلور أكثر وأكثر، فدبت فيه الحمية لله ورسوله ولأمتة ودينه... وما أن أعلن في صيدا عن إنشاء (المقاومة الشعبية) حتى سارع محرم للإنخراط بهذه المقاومة تلبية لداعي الجهاد ومواجهة الأعداء... في تلك الفترة حمل الشيخ محرم السلاح وتلقى التدريبات العسكرية. لكن الوالد الطيب الذي لم يعرف خلال حياته الهادئة قتالاً أو نزاعاً لم يتقبل صنيع ولده، فهم عائلة لا شأن لها بالحروب والقتال والعمل السياسي... فالوالد وقتها ما كان ليتوقع أن ولده الشاب سيمسي في يوم من الأيام رمزاً للجهاد والعمل السياسي...

إتمامه لحفظ القرآن:

أيضاً شهدت تلك الفترة تنامي حب الشاب محرم للقرآن الكريم، فعكف مع أواخر العام 1967 ومطلع العام 1968 على حفظ القرآن الكريم، فحبس نفسه في مسجد قطيش لمدة ثلاثة أشهر أو يزيد، يصل الليل بالنهار ولا يخرج من المسجد إلا في حالة الضرورة القصوى، وإذا ما خرج سرعان ما عاد إليه، إذ كان همه ودأبه أن يحفظ القرآن الكريم... وكان له ذلك بفضل من الله ونعمة... ومنذ ذلك الوقت شهدت شخصية الشاب محرم تطوراً إيجابياً حباراً عبر عنه بقوله:

"منذ أن أكرمني ربي بحفظ القرآن الكريم، كان هذا الكرم مصحوباً بنفسية تأبى الذل والهوان، مصممة على مقارعة الظلم والعدوان، تواقّة إلى لقاء الله والجنة... ومهما حاول المعتدون والخائنون صدها عن هذا الإتجاه، فسوف تفشل جميع المحاولات... لأن هذا الإتجاه المستقيم أصبح والله الحمد عقلي الذي يفكر وقلبي الذي ينبض..." 1984/10/2

وبحلول العام 1969 يبدأ محرم الشاب نشاطه الدعوي كمحاولات متواضعة تحمل في طياتها مشروع دعوة سيبلغ يوماً أفاق الوطن الحبيب، بل ويتعداه منطقاً غرباً وشرقاً. لقد شرع محرم الشاب منذ ذلك العام في إلقاء الخطب والدروس والعظات... وكانت قرى الجنوب مثل البرغلية وضبعة العرب وغيرها... فضلاً عن المخيمات الفلسطينية مسرحاً لنشاطه في تلك الفترة... ويحكي لنا فضيلة الشيخ خليل الصيفي كيف حل في مدينة صيدا كإمام للمسجد العمري الكبير وذلك ابتداءً من شهر تشرين أول من العام 1969 وهناك كان لقائه الأول بمحرم عارفي الشاب المتحمس للدعوة، في ذلك اليوم بادر بسؤال الشيخ خليل عن كيفية تلاوة قوله تعالى: "يا بني اركب معنا" بشكل سليم... وعن الفرق بين "صريف الأقدام" و"صريف الأقدام" الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: "عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقدام" رواه البخاري، و"صريف الأقدام عند الأحاديث يعدل عند الله التكبير الذي يكبر في رباط عسقلان وعبادان" قال الإمام الذهبي في الميزان خبر باطل. وأجاب الشيخ خليل، ودون الشيخ محرم الشاب كلام الشيخ في دفتر كان بجوزته، بعدها أطلع الشيخ على خطبة مدونة عنوانها (حفظ اللسان) سبق له أن ألقاها في قرية البرغلية...

خلال هذا اللقاء رأى الشيخ خليل نفسه أمام شاب متحمس للدعوة يحب أن يتعلم العلم، ويحب أن يعلمه للآخرين امتثالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلغوا عني ولو آية" رواه البخاري.

والجدير بالذكر أن العمل الأساسي لمحرم الشاب كان حرفة السباكة، وبسبب كونه عاملاً بسيطاً، كان دخله المالي قليلاً لكنه رغم كل ذلك كان يدفع من جيبه أجرة الطريق ليصل إلى القرى الجنوبية حيث يعمل على تبليغ الدعوة وتنقيف الناس قدر استطاعته...

كذلك شهدت مدينة صيدا في ذلك العام تحولاً في مسار محرم الشاب فقد صار يؤم الناس متطوعاً في مسجد قطيش، وكان يتطلع إلى الظفر بوظيفة دينية رسمية من خلال الأوقاف الإسلامية إيماناً منه بأن هذه المؤسسة وغيرها من المؤسسات الإسلامية كالمحاكم الشرعية ودار الفتوى هي حصن من حصون الإسلام وواجب المسلم أن ينضم إليها ويعمل من خلالها على خدمة المجتمع والدعوة... وقدر الله أن ينال محرم

مبتغاه، إذا صدر بتاريخ 1969/2/4 قرار بتعيينه قارئاً في مسجد قطيش، عقبه قرار آخر بتاريخ 1969/10/27 بتعيينه مؤذناً في المسجد ذاته... هنا بدأ الشاب يتحول ليكون لاحقاً الشيخ محرم عارفي بشكل رسمي...

كذلك في العام 1969 شهدت صيدا تحولاً نوعياً في النشاط الدعوي إذ تزامن حلول فضيلة الشيخ خليل الصيفي في ربوعها مع إطلاقة سماحة القاضي المستشار فيصل مولوي على ساحتها... ومنذ ذلك التاريخ صارت الحلقات تعقد في منزل الشيخ خليل الكائن في منطقة ساحة الشهداء، وهناك كان يتم التباحث، لا في قضايا الوضوء والطهارة فحسب، بل كان النقاش يتعدى هذه المباحث الشرعية المهمة ليطل موضوعاً لا يقل عنها أهمية، ألا وهو موضوع التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية وضرورة تطوير النشاط الدعوي في لبنان والدول الأخرى ليكون على مستوى هذه التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية...

في تلك الجلسات بدأت نواة العمل الإسلامي المنظم في مدينة صيدا، وبدأ الشباب المسلم يتواصلون مع رموز الفكر الإسلامي المعاصر ورواد الصحو الإسلامية المباركة مثل الإمام المجدد حسن البناء، والشهيد سيد قطب، وسعيد حوى، ومحمد قطب، ومحمد الغزالي وغيرهم...

مطلع السبعينات:

وأطل العام 1970 وكان الشيخ محرم المؤذن والقارئ قد لبس الثوب الشرعي ووضع العمامة البيضاء على رأسه وبدأ يظهر بشخصية الشيخ الداعية رغم كونه لا يزال يمارس مهنته السابقة الذكر... وفي 1970/12/28 امتحن الشيخ محرم من قبل لجنة من العلماء الأفاضل، وبتوجيه من دائرة الأوقاف الإسلامية فنال إعجابهم وأقروا لخ بحفظه للقرآن وأهليته لممارسة المهام الدينية والدعوية...

كان الشيخ محرم لا يزال مرابطاً في مسجد قطيش، هذا المسجد الذي حوله بعون الله إلى خلية نحل نشطة، فكان الشباب المسلم يرتادونه ليجمعوا على تذاكر العلم وحفظ القرآن فضلاً عن السمر والمرح. وكان الشيخ محرم الأخ والصديق والأستاذ وممن تتلمذ عليه في حفظ القرآن الكريم وقتها فضيلة الشيخ محمد الشيخ عمار والحاج زهير قبلاني وغيرهم من وجوه العمل الإسلامي المعروفين...

ومن الطريف أن الإمام الرسمي لمسجد قطيش وقتها كان أعجز من أن يقف في الناس خطيباً أو واعظاً، فكان يكتفي بالإمامة في الصلوات بينما كان الشيخ محرم -وهو من الناحية الوظيفية أدنى رتبة من إمام المسجد- يقوم بالتدريس وإلقاء الكلمات والعظات عقب الصلوات وكأنه الإمام الفعلي للمسجد...

بين يدي شيخ القراء:

بعد إتمامه لحفظ كتاب الله، لم يقنع الشيخ محرم بما وصل إليه، بل طمح للإستزادة وتحصيل الأفضل، لذلك تقدم بكتاب لدائرة الأوقاف الإسلامية بوصفه أحد موظفيها. يطلب الإذن بالمضي إلى بيروت للجلوس بين يدي القارئ الشيخ حسن دمشقية رحمه الله تعالى وهو شيخ قراء لبنان وأحد أبرز قراء بلاد الشام... ولدى الموافقة على الطلب، بدأ الشيخ رحمه الله يتردد على الشيخ حسن دمشقية لمدة شهر كامل يقرأ في كل يوم جزءاً من القرآن الكريم. والذين عرفوا الشيخ حسن دمشقية رحمه الله تعالى يحكون عن مدى تشدده في الإقراء وخير ما يثبت ذلك أنه من المنات الذين قرأوا عليه لم يجز منهم إلا العدد اليسير اليسير... هذا فضلاً عن شدته وحدته في بعض الأحيان مع طلابه. وقد حدث أن

أخطأ الشيخ محرم في القراءة يوماً، فما كان من الشيخ حسن إلا أن انتهره بشيء من الحدة، مما أثر في نفس الشيخ محرم فعاد إلى صيدا دافع العينين وقال لأخيه يومها:

"والله لولا حبي لكتاب الله وتشوقي لأن أبعث يوم القيامة في زمرة الحفظة أصحاب السند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهربت من مجلس الشيخ ولما عدت إليه أبداً..."

تابع الشيخ محرم تردده على الشيخ حسن دمشقية حتى نال منه شهادة تفيد بأنه متين في الحفظ مجيد للأحكام وضابط لمخارج الحروف، أما ما كان من أخطاء فقد تم تقويمها وتصويبها... وكان ذلك في العام 1972...

الإنضمام إلى الجماعة:

بدأ تواصل الشيخ محرم مع فكر الحركة الإسلامية ومشروعها التغييري منذ العام 1969 كما أسلفنا، حيث بات من رواد دروس سماحة المستشار الشيخ فيصل مولوي حفظه الله... وزاد تبحر الشيخ محرم في فكر الحركة الإسلامية مع تزايد مطالعته لكتابات روادها ومفكراتها.. ولكن حتى مطلع السبعينات كانت علاقته بالحركة الإسلامية لا تعدو كونه أحد المؤيدين والمؤازرين لها... وكان مع إخوانه الدكتور صلاح الدين أرقدان والشيخ ماهر حمود والحاج زهير قبلوي والشيخ موفق الرواس وغيرهم من أبرز المرشحين للتحويل من مجرد التأييد والإعجاب بمشروع الحركة الإسلامية، إلى الإلتزام بهذا المشروع والانخراط في العمل الحركي ليكونوا من أركان الجماعة وكوادرها...

وبحلول العام 1972 في بيت الشيخ خليل الصيفي في منطقة ساحة الشهداء، حضر الشيخ فيصل مولوي ليشهد إعلان الشيخ محرم عارفي عن استعداده للالتزام بالعمل مع الجماعة وتسخير إمكاناته لخدمة مشروعها والعمل على نصرتها ومؤازرتها في المنشط والمكره... منذ ذلك التاريخ تم التحاق الشيخ محرم بركب الجماعة، واستمر معها حتى وفاته. ورغم كل الظروف لم يسقط أو يتخلف عن الركب مع المتساقطين المتخلفين... لقد كان يؤمن بمنهج الجماعة ويعتقد أن ما يقع من أخطاء أثناء التطبيق لا يمكن أن يعالج من خلال الانكفاء، والابتعاد عن التنظيم، بل من خلال التقرب منه أكثر وأكثر، والتفاني في خدمة المشروع الإسلامي، باذلاً الجهد ومستفرغاً الوسع للتقليل من الأخطاء وتخطي العقبات.

زواج الشيخ:

ها قد بلغ الشيخ محرم الخامسة والعشرين من عمره المبارك، ولكنه كان لا يزال عازباً. لقد حدثته نفسه بالزواج، لكنه كان مترثاً يتطلع إلى الاقتران بالتي تعينه على أمور دينه، وتشاركه مسيرة الدعوة إلى الله وتصبر معه على قلة ذات اليد وصعوبة الحياة. وشاء الله تعالى أن يرشد الشيخ إلى ضالته، فإذا به يرى في منامه السيدة (سعاد حنينة) أخت فضيلة الشيخ غازي حنينة حفظه الله -الذي تربطه بالشيخ محرم صداقة وطيدة- مرتدية ثوب العرس الأبيض. يمضي الشيخ محرم إلى الشيخ إبراهيم غنيم ويفاتحه بأمر هذه الرؤيا، فيبشره الشيخ إبراهيم بالخير...

لكن الشيخ محرم ابن العائلة المتواضعة، وصاحب الدخل المحدود خشي أن يرد خانباً فلا يزوج... فسعى إلى الاستعانة بأصحاب الفضيلة الشيخ خليل الصيفي والشيخ سليم سوسان والشيخ غازي حنينة. وكان معهم صادقاً أشد الصدق ففاتحهم بحقيقة وضعه المادي، ومستواه

المعيشي، بل أكثر من ذلك فقد كشف لكل من الشيخ سليم سوسان والشيخ غازي حنيئة عن الحروق التي في جسده والتي أصيب بها وهو صغير حتى لا تكتشفها العروس بعد الزواج فيكون في عينها مخادعاً...

لكن أم سعد الدين - هذه المؤمنة التي ابتلاها الله بفقد زوجها وتيتم وحيدها- لم تنظر إلى كل ذلك، فهي لم تكن لتبحث عن المال أو الجاه أو غير ذلك... لقد كانت تبحث عن ترضى خلقه ودينه كما أمر الله وكما أمر رسوله الكريم...

تبتسم الحاجة أم سعد الدين وتقول:

"نحن ما رضينا بالشيخ محرم إلا لدينه..."

وبسبب التطلع إلى الدين والخلق قبل كل شيء، تم هذا الزواج الميمون الذي عاش في ظله أفراد هذه العائلة حياة سعادة وهناء.

نعم لقد أصبح الشيخ محرم منذ العام 1973 رب أسرة يبحث كعادته عن الحلال الطيب لإعالتها والإنفاق عليها.. ولم يكن راتبه آنذاك يتجاوز 218 ليرة لبنانية، وكان عليه أن ينفق منها 75 ليرة كأجرة سكن، ويحاول أن ينفق باقي الراتب بحكمة حتى لا ينفد قبل آخر الشهر... لكن نفقات الأسرة كانت أكبر من راتب الشيخ لذلك حاول العودة إلى مهنته القديمة -السباكة- عله يجد فيها بعض المال الذي يعينه على تحسين دخله، لكن الله شاء أن يكون الشيخ محرم للدعوة فقط، فلم يستطع الشيخ التوفيق بين مهنته ونشاطه المسجدي فعاد وترك المهنة وتفرغ للدعوة بعد شهر واحد وكان ذلك في العام 1977...

ولتعرف مدى ضيق حال الشيخ وقتها، يكفي أن تراجع ملفه الوظيفي في أرشيف الأوقاف لتجد الشيخ يلتبس في أكثر من خطاب أن ينظر إلى حاله ويرجو أن يزداد له في راتبه...

لكن المرأة الصالحة صبرت على حال زوجها فعوضها الله في قادمات الأيام جزاء صبرها وإخلاصها كل خير...

وتشرح لنا زوج الشيخ مدى عشقه رحمه الله للعلم والدعوة، فهو أثناء النهار مع الكتب يقرأ ويحفظ، فجسده في المنزل وروحه تحلق بعيداً، فقد انجذبت إلى الموضوع الذي يقرأ عنه حتى إنه رحمه الله كان ينسى الطعام والشراب لشدة انجذابه للمطالعة والقراءة... هذا في النهار، أما في فترة المساء فكان مع الشباب من إخوانه وطلابه، يحيون سوياً العبادات والنشاطات الدينية والدعوية المختلفة... وكثيراً ما كان الشيخ محرم يتأخر خارج البيت فلا يعود إلا مع حلول الليل، بل ويتأخر أحياناً إلى منتصف الليل... لكن الزوجة المتفهمة ما كانت لتنكر على زوجها ذلك فهي تعرف أنها تزوجت من داعية وأنه من واجبها أن تصبر على نمط حياته وتعينه في دعوته...

الانتقال إلى مسجد بطاح:

مر معنا أنه منذ العام 1969 والشيخ محرم مرابط في مسجد قطيش يقوم بمهام القراءة والأذان فضلاً عن الاعتناء بالمسجد وصيانته... فإن وقف إماماً في الصلوات فذلك على سبيل التطوع وليس بشكل رسمي. لكن الشيخ محرم كان يتطلع إلى الارتقاء بنفسه ليصبح إماماً وخطيباً

ينفع الناس بما من الله عليه من علم ومعرفة، وبقي يتطلع إلى ذلك حتى أتيت له الفرصة في 1973/4/1 حيث انتقل إلى رحمة الله فضيلة الشيخ عمر سنجر إمام وخطيب مسجد بطاح. وبوفاته رحمه الله تعالى بات المسجد شاغراً فكلفت مديرية الأوقاف الشيخ محرم بالقيام بهذه المهمة، ومن وقتها صار الشيخ محرم محور مسجد بطاح، حيث عهدت إليه جميع الوظائف الدينية من قراءة وتدریس وخطابة وأذان وخدمة... وقام الشيخ رحمه الله بكل هذه الوظائف -على قلة ما يتقاضاه مقابلها- على أتم وجه. وبفضل إخلاصه في عمله وتفانيه في الدعوة إلى الله، تحول مسجد بطاح إلى خلية نحل نشطة. وبقي الشيخ محرم في مسجد بطاح رسمياً حتى 1989/6/26 حيث تم نقله في تلك السنة إلى مسجد باب السراي الذي بقي فيه خطيباً حتى آخر أيامه.

في رحاب الديار المقدسة:

في العام 1974 يسر الله للشيخ محرم أداء فريضة الحج، وكانت هذه أول حجة يؤديها، وهناك في رحاب الديار المقدسة جاور الشيخ محرم الكعبة المشرفة وقضى الساعات الطوال بحذائها يتلو القرآن ويقوم الليل، وشهد بعض من عرف الشيخ في رحلات الحج أنه كان يطيل الصلاة بخشوع واستكانة مغتماً فرصة وجوده في هذه البقاع الطاهرة ليتزود من خير الزاد، زاد الإيمان والعمل الصالح...

كذلك في المدينة المنورة كان رحمه الله يلزم المسجد النبوي مجاوراً الحجرة الشريفة مرابطاً في الروضة المباركة، ويكفيك أن تستمع إلى الأشعار وكلمات المدح والثناء التي كان الشيخ محرم يرددّها في دروسه وخطبه لتعلم مدى شفافية هذا الإنسان ومدى تعلق قلبه بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا الحب العجيب الذي تجلى من خلال دأب الشيخ على الإلتزام بنهجه والإستئان بسنته مهما كلف الأمر...

وفي الحج كان الشيخ محرم يجعل من نفسه خادماً للعامة والبسطاء من الناس فيرشد ويعين ويعلم، وكأنه يحج عن نفسه وغيره في آن معاً...

وتحكي لنا زوج الشيخ كيف يسر الله لها مرافقة الشيخ أكثر من مرة لأداء هذه العبادة الجليلة، لكنها تعلن أنه كان معها في جسده لكن قلبه وروحه منشغلان في خدمة الحجيج ومعاونتهم... لقد عشق الشيخ هذه العبادة عشقاً فكان يداوم على أدائها في كل عام، ولم ينقطع عن ذلك إلا بسبب الاعتقال الذي طاله على أيدي اليهود، لكنه بعد خروجه من المعتقل عاد لهذه السنة الحميدة حتى كانت آخر حجة له عام 1999 بعدها اشتد عليه المرض وتوفاه الله تعالى ونفسه تواقّة لأداء حج الموسم التالي بعد أن قدم الأوراق اللازمة ولكن قدر الله وما شاء فعل...

لئن كان الشيخ يرى في الحج فرصة للعبادة والتقرب من الله، فإنه كذلك كان يرى فيه مؤتمراً عالمياً يشهده أبناء الأمة الواحدة على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وأعرافهم وقومياتهم... ويحدثنا أبو العطاء -أخو الشيخ محرم- عن حادثة تجلت من خلالها الكثير من العبر...

كان الشيخ في المسجد الحرام، وهناك التقى أحد الأشخاص المتحمسين للدعوة القومية، فأراد الشيخ أن يثبت للرجل أن الإسلام أسمى وأرقى من كل الدعوات سواء كانت قومية أو عرقية أو غير ذلك... فطالبه بأن يتأمل مشهد الحجيج وهم يطوفون حول البيت العتيق وفيهم الأبيض والأسمر والأسود، العربي والأعجمي... لكن لباسهم واحد وفعلهم واحد وربهم واحد وعبادتهم واحدة... وسأل الشيخ ذلك الرجل قائلاً:

"بالله عليك من غير الإسلام يقدر على جمع هذا الشتات ليجعل منه أمة واحدة تذوب في رحابها كل الاختلافات؟"

لم يملك الرجل من جواب إلا أن دمعت عيناه إقراراً بقدرته الله وعظمة دينه وإفلاس كل الدعوات الأخرى... نعم، لقد فهم الشيخ محرم معنى عالمية الدعوة من خلال كتابات مفكري الحركة الإسلامية نظرياً لكنه لمسها عملياً من خلال هذه الرحلات المباركة...

الشيخ محرم في مسجد بطاح 1973-1982:

بدأ الشيخ محرم يتألق يوماً بعد يوم مع النصف الثاني من فترة السبعينات، فقد استجمع عدته من حفظ للقرآن مع اطلاع على الفقه والتفاسير، فضلاً عن الأحاديث والأخبار واللطائف التي لا بد منها كمعين للداعية تمكنه من الوصول إلى قلوب وعقول مستمعيه.

غير أن الشيخ محرم كان يعي أن العمل الدعوي على أهميته لا بد من أن يقتدر بحركة على الصعيد الاجتماعي والسياسي، وذلك في سبيل تحقيق النهوض المنشود في حياتنا ومجتمعاتنا، بشكل متوازن على جميع المستويات. وكان الشيخ محرم من أبناء الجماعة الإسلامية التي انضم إليها منذ مطلع السبعينات كما سبق- وكونه كذلك من الناشطين في مجال الدعوة إلى الله والعمل في خدمة الإسلام منذ أواخر الستينات... فأين تراه يصب جهوده؟؟ حتماً ستكون الساحة الإسلامية هي المصب الطبيعي لعطاء الشيخ محرم المتدفق كينابيع الخير. لذلك شهدت هذه الفترة حركة مميزة على ثلاثة صعد:

الأول- والأهم كذلك- كان على صعيد العمل الدعوي. فقد تعددت نشاطات الشيخ محرم الدعوية في المسجد، وفي المدارس، وبين عموم الناس حيث شاركهم لأفراحهم وأتراحهم فضلاً عن ارتياده منتدياتهم ومجالس سمرهم... ولقد استحال مسجد بطاح -هذا المسجد المتواضع- خلية نحل نشطة وكان الشيخ محرم هو محور هذه الحركة المباركة والدافع الأبرز لها. فعلى مدار العام كنت تشهد بعد عصر كل يوم جلسة إقراء وتحفيظ لكتاب الله الكريم، حيث يجلس الشيخ القارئ وقد تحلق حوله طلابه من مختلف الأعمار والمستويات، ويبدأ الدرس ويتسارع الوقت حتى إن الساعات لتتقضي بسرعة عجيبة فلا يكاد يشعر بمرورها أحد، كيف لا وعذوبة تلاوة الشيخ ونداء صوته تجعل القلب يخشع والعين تدمع، كيف لا وفيوض الرحمة قد نشرت على أهل المجلس، وبركاته كتاب الله أحلت على الشيخ العالم وطلابه المتعلمين.

كان الشيخ محرم يعرف طبائع النفس البشرية ويعرف أن الملل هو الداء الذي يمنع الطلاب عن المواظبة... فما كان منه إلا أن تسليح بالكلمة الطيبة، والعظة النافعة، واللطيفة المفيدة، فضلاً عن تواضعه ولينه مع الآخرين. ليحبب إلى الناس مجالس العلم، لذلك كانت مجالس الشيخ تجذب الرواد والطلاب والقراء، حيث تتضافر الجهود، جهد العطاء من الشيخ وجهد التلقي من الطلاب. ولا مجال للملل فانت مع الشيخ محرم...

إلى جانب الجلسة اليومية بعد صلاة العصر، كان فصل الصيف فرصة سانحة لإقامة الدورات الدينية. وتاريخ صيدا يشهد أن فكرة الدورات القرآنية المسجدية -التي تموج بها مساجد مدينتنا كل صيف- يعد الشيخ محرم أول من أطلقها كفكرة، وأول من مارسها كتجربة دعوية، وأول من حشد الجهود لإنجاحها وضمان استمرارها وانتشارها في مساجدنا.

هذا ولا ننسى خطب الجمعة المميزة، فقد أتم الشيخ محرم قراءة كتاب "في ظلال القرآن" للشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى، وحفظ منه مقاطع طويلة، كما اطلع على العديد من التفاسير القيمة التي تضافرت جهود علماء الأمة قديماً وحديثاً على إخراجها لتكون زاد خير لكل عالم، وطالب علم، وداعية. ولاحظ كل من عرف الشيخ أن خطابه قد ارتقى جداً أسلوباً ومضموناً في تلك الفترة. وبقي أسلوب الشيخ محبباً وقريباً من العامي والمتعلم. أما المضمون فقد ارتقى إلى حد كبير، خاصة حين كان الشيخ محرم يصيغ أفكار سيد قطب وآرائه لتكون محور خطبه، فيحلق الشيخ رحمه الله في أفاق الفكر الإسلامي الأصيل... ولعل المتنورين من رواد مسجده استطاعوا اللحاق به غير أن العوام كانوا أعجز من أن يجاروه. وسرعان ما تنبه الشيخ لذلك وعاد وطور خطابه ليكون من السهل الممتنع القريب من جميع المستويات، فتقبل العوام والمتعلمون خطبه بعد ذلك وبقي بلا منازع الخطيب الأبرز وفارس فرسان المنابر لا يدانيه أحد...

هذا وقد امتد نشاط الشيخ محرم ليشمل مجال التدريس في مدارس مدينة صيدا، حيث كان الشيخ خليل الصيفي حفظه الله منتدباً من قبل وزارة الأوقاف الإسلامية للتدريس في بعض المدارس الرسمية. وليس مستغرباً أن يقف الشيخ خليل الصيفي في الصف أمام الطلاب والطالبات ليشرح ويدرس، فهو العالم المتخرج من الجامعات الأكاديمية والحامل للإجازات الجامعية. لكن المستغرب أن يضطر الشيخ للانقطاع عن التدريس في بعض الأحيان، فلا يجد أحداً أفضل من الشيخ محرم لينيبه مكانه... فصرت تجد الشيخ محرم الذي لم يتجاوز في

دراسته المرحلة الابتدائية من مراحل التعليم، يقف أمام الطلاب شارحاً وموضحاً لمعالم ديننا الحنيف...ولعل الشيخ خليل كان متخوفاً من إخفاق الشيخ محرم، فالدعوة في المسجد مختلفة عن التدريس في فصل دراسي ورواد المساجد ليسوا كطلاب المدارس...لذلك كان الشيخ خليل يسأل الطلاب والطالبات عن رأيهم بالشيخ محرم، ويمتحنهم في المعلومات التي أخذوها عنه وكانت المفاجأة... لقد أبدع الشيخ محرم في اقتحام قلوب الطلاب وعقولهم... وكان عجباً في قدرته على جذب انتباههم، وشحذ تركيزهم، وإيصال المعلومات إليهم بشكل واضح وأسلوب مميز رغم كونه لم يتدرج في التعليم الأكاديمي.

أما خارج المسجد وبعيداً عن المدارس فقد كان للشيخ محرم أنشطة أخرى تهدف إلى تقوية أواصر الأخوة الإسلامية بينه وبين محيطه. لذلك جعل من منزله -الكائن في حارة الكنان في صيدا القديمة- نادياً للمقربين من طلابه، وكانوا من حين إلى حين يجتمعون على طعام، أو جلسة سمر وإنشاد، أو لتدارس أوضاع المسلمين عامة وأهل المدينة خاصة. لقد كانت هذه الثلة المؤمنة التي تجمهرت حول الشيخ وقتها، نواة العمل الإسلامي العام. هذا العمل الذي ترجم واقعاً من خلال عدة مخيمات أقيمت في الأعراس المجاورة لمدينة صيدا. ولا زالت الصور الفوتوغرافية تحفظ لنا مشاهد من هذه المخيمات حيث يظهر الشيخ محرم مع الشباب وهو يشعل نار المخيم لأجل الطهي، أو يقفز من أعلى الشجرة ليحملهم على القفز، أو يركض وهم على إثره يحاولون اللحاق به وإمساكه... وكانت أجواء الشباب المسلم وقتها ذات طابع مميز حيث انقسم الشباب إلى جناحين، جناح الطلاب -طلاب المدارس والجامعات ويتراسه فضيلة الشيخ ماهر حمود- وجناح العمال -أي أصحاب المهن والحرفيين- وكانت المنافسة بين هذين الجناحين على أشدها في كل النشاطات الترفيهية...

إلى جانب المخيمات كانت هناك الرحلات الترفيهية إلى مناطق الباروك ونبع الصفا وقلعة موسى وبيت الدين وغيرها... ولا ننسى ما يرافق هذه الرحلات من طرائف ومواقف مضحكة، فضلاً عن الهتافات والأناشيد...

في خضم هذه الأنشطة الدعوية لم ينس الشيخ محرم الجانب الاجتماعي من ديننا الحنيف. لقد كان يعي شمولية الإسلام لكل جوانب الحياة، وبالتالي ما كان الموضوع الاجتماعي ليفوته، لذلك كان يحث المصلين على التبرع لصندوق المسجد، ثم تجمع هذه التبرعات لينفق جزء منها على الفقراء والمحتاجين لتعينهم على تأمين حوائجهم. صحيح أن الإنسان يحتاج إلى الأمور المادية لتجاوز الضائقة التي وقع فيها. لكنه أيضاً يحتاج إلى الشعور بأن هناك من يقف إلى جانبه، يواسيه ويخفف عنه. ولعل هذا الجانب المعنوي أبلغ تأثيراً من العطاء المادي... وكان الشيخ محرم يعي ذلك تماماً ويلتزمه في تعاطيه مع الآخرين. ولعل خير من يطلعنا على هذا الجانب من شخصية الشيخ محرم هو الحاج معتز سالم حيث يقول حفظه الله:

"تعرفت على الشيخ محرم في صيف عام 1975 وكنت وقتها صغيراً أشعر بمرارة اليتيم، فضلاً عن قلة ذات اليد. فالتحقت وقتها بالمجموعة التي كانت ترتاد مسجد بطاح وتقربت من الشيخ محرم -أو هو تقرب مني- وسرعان ما عرف الشيخ أنني يتيم، فكان الأب والأخ والصديق. ولا أنسى عناقه الأخوي وقبلته التي يطبعها على جبيني من حين إلى حين. وكنت أعاونه في القيام على خدمة المسجد وتنظيفه، فكان من فرط لطفه يتفضل علي بخمس ليرات أسبوعياً لأستعين بها على شراء ما قد أحتاجه...كما أنه ما كان ليفوت أي مناسبة أو عيد إلا ويدفع إلي بعشر ليرات عيدية لكي أنفق منها شان كل الأولاد. وحين عرف الشيخ بأمر مرضي (الحاج معتز مصاب بمرض في العيون يجعل المصاب يفقد بصره شيئاً فشيئاً) حاول مساعدتي وتطبيبي لكنه لكثرة مشاغله طلب من الأستاذ حسن أبو زيد أن يتابع الموضوع وأن يعرضني على أفضل الأطباء إن استدعى الأمر. وبالفعل فقد اصطحبني الأستاذ حسن إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت حيث أعلمت أن مرضي لا علاج له. وحين علم الشيخ محرم بالأمر، كاد قلبه ينفطر حزناً لحالي، وصرت ألاحظ اجتهاده الزائد في إكرامي وتطبيب خاطري ومواساتي..."

لعل هذه الشهادة تظهر لنا الجانب الإنساني والاجتماعي من الشيخ محرم رحمه الله، وهو الذي عرفناه جميعاً إنساناً عطوفاً يعين المحتاج ما استطاع إلى ذلك سبيلاً... لكننا نكتفي بهذه الشهادة خشية الإطالة.

إلى جانب العمل على الصعيد الدعوي والإجتماعي، لم ينس الشيخ محرم الجانب السياسي والجهادي من ديننا الحنيف. فكان يسعى ليكون حضوره على الصعيد السياسي موازياً لحضوره على الصعيد الأخرى. وكانت فصائل الثورة الفلسطينية وقتها القوة الأساسية على الساحة اللبنانية عامة -خاصة بعد إخراجها من الأردن مطلع السبعينات وانتقالها بكل ثقلها إلى لبنان. وكان الشيخ محرم يتألم لحال الشعب الفلسطيني المسلم ويتحسر للمآسي التي تصيبه من الغريب والقريب. لكنه أيضاً كان يستنكر حال الفوضى وعدم الالتزام الديني السافر في أوساط الفدائيين. ويوصفه داعية إلى الله حاول بالتعاون مع الآخرين أن يجتهد على بث الروح الإيمانية والمنهج الإسلامي بين من عرفهم من أبناء التنظيمات الفلسطينية. وكان حلمه أن يكون في عداد الثورة الفلسطينية فصيل إسلامي مخلص لقضايا أمته ودينه، يحمل قضية القدس دون الغرق في متاهات السياسات والمصالح المتضاربة. لكن حلمه تبدد بسبب عدم تعاون المسؤولين الذين حاول التواصل معهم. لذلك لم يبرز الشيخ محرم كناشط سياسي ومجاهد عسكري في تلك الفترة. بل اقتصرته جهوده على الصعيد الدعوي والاجتماعي، وكان مسجد بطاح المحور والمنطلق لهذه الجهود.

نماذج من نشاطات الشيخ محرم المسجدية:

كان البرنامج المسائي يبدأ بعد صلاة المغرب، فإذا ما قضيت الصلاة كانت جلسة لقراءة المأثورات قراءة جماعية، ثم يحين موعد صلاة العشاء. ومع انقضاء الصلاة يبدأ رهبان الليل تهجدهم الذي يفتتح بالنوافل التي يعقبها دعاء طويل يدعو به الشيخ محرم فيسمع دعاؤه الخاشع الممزوج بنبرة حزينة ضارعة إلى الله. وتجيش في النفوس أحاسيس الشوق والحب الإلهي، وتتفجر الطاقات الروحية، وتنثر النفوس مكنوناتها فيكون هذا الدعاء جلاء للصدأ الذي طال القلوب، والوهن الذي تسلل إلى النفوس، وتفيض الدموع، وتطمئن القلوب برحمة الله وفضله...ومن ذاق عرف.

لكن الشيخ محرم كان يعي أن الدين عبادة وضراعة إلى الله لكنه أيضاً فرح وحبور، خاصة إذا كان المؤمن بين أخوة يحبهم ويحبونه فكان رحمه الله يختم جلسات العبادة بالأناشيد الجهادية التي تشدّ الهمم وتحرك في نفوس السامعين معاني العزة والكرامة. ولا ينسى الشيخ أن يكرم رواد مسجده، فكما تشاركوا في الاجتماع على مائدة الغذاء الروحي، يتشاركون في الاجتماع على مائدة الغذاء الجسدي فتوزع الحلوى، ويحلو الجو مع السمر والطرائف إلى أن ينفض المجلس ويفترق الإخوان وقلوبهم مطمئنة بحب الله ورسوله والمؤمنين. إذا كان هذا ليل مسجد بطاح، فإن نهاره في الأيام العادية يعتبر تقليدياً -اللهم ما كان من نشاطات تحفيظ القرآن بعد صلاة العصر- وذلك بسبب انشغال الناس في أعمالهم، والطلاب في مدارسهم. لكن يوم الجمعة يعتبر العلامة الفارقة بين أيام الأسبوع، حيث كان الشيخ يكر في الحضور إلى المسجد، ثم يشرع في تلاوة عذبة لسورة الكهف وما تيسر من السور الأخرى. فإذا ما انتهى من التلاوة تناول صندوق الأسئلة الذي جعله في المسجد لأجل أن يضع فيه الناس أسئلتهم الشرعية. ويبدأ الشيخ بالإجابة، ويستفيض في إجاباته لتعم الفائدة وينتفع السامع والسائل على السواء... ولا ينسى الشيخ أن ينفذ من خلال الأسئلة والأجوبة إلى ما يلامس واقع الناس ومعاشهم. فينصح، ويوجه ليكون الدين والشرع عنصراً عملياً في حياة الناس لا مجرد آراء نظرية ومثلاً لا مجال لتطبيقها.

شهر رمضان في مسجد بطاح:

كل ما قدمناه من أنشطة تعبدية كانت في الأيام العادية أما شهر رمضان المبارك، فقد كان موسماً مميزاً بالنسبة للشيخ محرم ورواد مسجده ومن يلتحق بهم من الشباب المسلم. فالإفطارات الجماعية التي يجتمع عليها عشرات الأشخاص حتى يكاد المسجد يضيق عليهم، وصلاة التراويح التي تطول ركعاتها العشرون ليشهد المصلون ختم القرآن بصوت الشيخ محرم في هذا الشهر الكريم، والدعاء والقنوت لله تعالى، فضلاً عن طعام السحور المميز...

ولأن ساعات ما قبل الفجر تكون عادة ساعات نوم وسكون... لكنها مع إقبال شهر الخير تدب فيها الحياة، فترى الشيخ يدعو تلاميذه وإخوانه لتناول السحور في المسجد... وكان من حكمته أن يكلف كل من يخشى تخلفه عن الحضور، بعمل معين يلزمه به ليضمن حضوره. ومن الطرائف أن الشيخ قرر في يوم من الأيام أن يكون طعام السحور كنافه بالجبن فعهد إلى الحاج معتز السالم مهمة إحضار الخبز الخاص بالكنافة. وكان معتز طري العود وقتها، غير معتاد على الاستيقاظ والخروج من البيت في مثل هذا الوقت الباكر جداً فضلاً عن كون الجو في تلك السنة ماطرأ. فقال الحاج معتز للشيخ: "أتخشى أن لا أحضر فتبقى الكنافه بلا خبز..." فقال الشيخ: "لقد وكلتك بهذه المهمة لأضمن حضورك..." وكان ذلك من فطنة الشيخ وحكمته.

النشاط الإجتماعي في مسجد بطاح:

أما النشاط الإجتماعي، فكان عماده صندوق المسجد، وما تجود به نفوس أصحاب الأيادي البيضاء. ثم تجمع هذه الأموال وتقسم بمعدل 20 إلى 25 ليرة وتوضع في ظروف، وتعطى للعائلات المستورة لتكون عوناً لها على متطلبات الحياة. يلاحظ مما سبق أن الجانب الدعوي هو الجانب الأبرز في حياة الشيخ ونشاطه في تلك الفترة. كما ويظهر بشكل جلي أن الشيخ كان رانداً في هذا المجال. أما بالنسبة للعمل الإجتماعي فقد كان بسيطاً ولم يأخذ طابعاً مؤسسياً احترافياً لعدم توفر الإمكانيات من جهة، وعدم وضوح المعطيات من جهة أخرى. وهكذا تنقضي فترة السبعينات ويظن المرء أن الشيخ سوف يبقى حبيس الإطار الدعوي والإجتماعي الذي ذكرناه... ولكن خيوط القدر كانت تنسج ليلبس الشيخ ثوب العمل السياسي والجهادي بجدارة مع مطلع الثمانينات، فيبرز هذا الجانب من شخصيته بعد أن فشلت محاولته في الانخراط في العمل السياسي خلال فترة السبعينات.

تم الجزء الأول بحمد الله

"على درب الجهاد 1980-1983"

بؤادر توسع العدوان الإسرائيلي:

كانت أجواء الثمانينات ملبدة بالغمام، فبؤادر الأزمات والحوادث بادية واضحة. لقد كان الصهاينة يتحضرون لضرب العمل الفدائي الذي ينطلق من لبنان وساحته الجنوبية لضرب شمال فلسطين المحتلة. وكانت التوجهات الصهيونية تسير نحة تصعيد الموقف وضرب لبنان ضربة موجعة تكون سبباً في تدمير قوى الثورة الفلسطينية وتقليم أظافر كل المجاهدين الذين ينطلقون من الساحة اللبنانية، في سبيل الحفاظ على أمنهم المزعوم.

والشباب المسلم في صيدا جزء من هذا البلد، وجزء من أمة الإسلام فإن نظرت للأمر من منظار وطني، فواجب على المسلمين أن يتجهزوا لدفع أي عدوان على الوطن وأهله الآمنين. وإن نظرت للأمر من منظار ديني فالصهاينة يحتلون القدس الشريف وفلسطين المباركة وأجزاء أخرى من أرض المسلمين. وواجب على أبناء الأمة أن يتصدوا لهم ويواجهوا توسعاتهم ويسترجعوا المقدسات السليبة من براثن الاحتلال الغاصب.

وكان الشيخ محرم أحد المشجعين للعمل الجهادي من خلال الخطب والدروس التي تهدف إلى نشر الوعي السياسي وبث روح المسؤولية بين صفوف المؤمنين.

لكن الشيخ محرم أراد لنفسه أن يوافق فعله قوله، حتى لا يكون ممن قال فيهم ربنا سبحانه وتعالى:

"يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"

فما كان منه إلا أن حوّل بيته -الكائن في حارة الكنان- إلى معقل للمجاهدين. ولما كانت عدة المجاهد عقيدة راسخة، وفكراً مستثيراً، وعتاداً مناسباً؛ فكان دأب الشيخ أن يزرع في نفوس الخالص من طلابه وإخوانه روح الجهاد، وحب الشهادة في سبيل الله، ليكون جهادهم نابعاً من قلب مفعم بالإيمان.

ولتوعية الرأي العام كانت المنشورات والمطبوعات خير وسيلة لنشر الوعي السياسي وتنبيه الناس إلى أبعاد التطورات السياسية في لبنان والجوار، وكان منزل الشيخ مستودعاً لهذه البيانات و المناشير.

وإلى جانب العقيدة والفكر اسلياسي، كان لا بد من التدريب على السلاح، وبالفعل فقد حول الشيخ منزله إلى معسكر تدريب عسكري، حيث كان يجتمع الشباب المسلم من حين إلى آخر ليتدربوا على صنع الأسلحة الشعبية من قنابل حارقة وعبوات. هذا فضلاً عن التدريب على استعمال الأسلحة التقليدية.

الإجتياح الإسرائيلي للبنان:

وبحلول صيف العام 1982 ومع بداية شهر حزيران كانت طائرات العدو تحلق في سماء مدينة صيدا والشيخ محرم يتعاون مع زوجته الفاضلة على حرق الصور والبيانات والمنشورات والأوراق التي يخشى إن وقعت في أيدي العدو وعمالانهم أن تفضح أسماء ووجوه الشباب المسلم المجاهد. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل حوّل الشيخ منزله إلى قاعدة عسكرية حيث رابط الشباب المسلم بسلاحهم داخل البيت المظل على البحر من جهة الغرب وهم يراقبون الساحل تحسباً لأي إنزال يقدم عليه العدو.

وحل الخامس من حزيران واجتاحت قوات العدو الصهيوني لبنان ومن ضمنه مدينة صيدا. وتصدى الاشواوس للعدوان، لكن الآلة العسكرية المتطورة كانت أكبر من أن تتصدى لها الاسلحة الخفيفة والتقليدية. فحلت الكارثة وبات قسم كبير من بلدنا الحبيب تحت نير الاحتلال الغاشم. كان الحرق والتدمير السمة البارزة للجيش الإسرائيلي، فهمجية الصهاينة لم تفرق بين المواقع العسكرية ودور العبادة ومنازل المواطنين. فدمر المسجد العمري الكبير، ودمرت المنازل والبيوت، حتى منزل الشيخ محرم نال حظه من التدمير حيث قصف وأصيب بإصابات مباشرة مما تسبب في تدميره واستحالة السكن فيه. لكن رحمة الله تعالى وعنايته تدخلت حيث كان ذلك اليوم يوم أحد، وقد اصطحب الشيخ أهل بيته لعيادة أخت زوجته والإطمئنان على حالها. ولما عاد وجد المنزل قد تهدم بعضه وأكلت النيران بعضه الآخر. لكن ذلك لم يؤثر على عزيمة الشيخ بل صبر على الإبتلاء واحتسب ما خسره عند الله وفي سبيل الله.

صلاة الجمعة تحت وقع القصف

أثناء الإجتياح، كانت المدينة تعيش حالة رعب وهلع. لأجل ذلك فرّ عدد كبير من الأهلي إلى مناطق أكثر أمناً، أما الذين بقوا فقد لازموا الملاجئ، وتخلّفت جموعهم عن صلاة الجمعة خشية حدوث أي طارئ لا تحمد عواقبه.

في ذلك اليوم مضى الشيخ سليم سوسان إلى مسجد المجذوب ليخطب الجمعة -وكان وقتها خطيب المسجد- لكنه فوجئ بعدم وجود أحد من المصلين.

خرج من المسجد وقصد مسجد الزعتري، وفي طريقه التقى بالشيخ محرم، فترافقا، ولدى وصولهما، وجدا المسجد خالياً إلا من بضعة مصلين تجمعوا -رغم سوء الحالة الأمنية- لأداء الصلاة.

وبدا للشيخ سليم أن يوعز إلى الشيخ محرم بأن يرتقي المنبر شرط أن لا يطيل الخطبة، بل يقتصر على الأركان الواجبة من حمد وثناء على الله والصلاة على رسوله والتذكير بالتقوى، لأن الحالة الأمنية لا تسمح بغير ذلك.

وارتقى الشيخ المنبر، فشرع في حمد الله والثناء عليه... لكن الموقف أنساه فاسترسل واسترسل، بينما كان جمع المصلين يتململ خوفاً من أن يحدث حادث، ويتشوّق لانتهاه من الصلاة بأسرع ما يمكن...

شعر الشيخ سليم بحساسية الموقف، فأشار بشكل عفوي للشيخ محرم بأن يقطع الخطبة وينزل للصلاة. لكن الخطيب المفوّه صاح بصوت المدوي كقصف الرعد بأنه سيتابع الخطبة ولن ينزل قبل إتمامها حتى ولو سقطت القذائف فوق رأسه مباشرة...

وكانت هذه الخطبة أول إعلان للتحدي رغم نير الإحتلال، وفتاحة المواجهة المباشرة مع اليهود وعملائهم...

في ذكرى المولد النبوي الشريف:

رغم الإحتلال، ورغم التضحيات، أبى أهل المدينة المسلمة إلا أن يعملوا على إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف. وهناك في مسجد الموصلي تحولت الذكرى على مناسبة للتحدي ورفض الخضوع للمحتل الغاشم -أليس هذا الذي علمنا إياه النبي الكريم الذي اجتمعنا على إحياء ذكره؟؟- وكان الشيخ محرم عارفي من بين المتكلمين، فوقف وقفة عملاق وأعلن الشعار الذي لا يزال محفوراً في ذاكرة الصيداويين، يومها قال:

"اجعلوني قذيفة واطلقوني في وجه اليهود"

لعل البعض ظنها مبالغة خطيب مفوّه، وأنها لن تعدو كونها نفحة من نفحات الإنفعال العاطفي... لكن الأيام جاءت لتترجم هذا الشعار عملاً فعلياً في مواجهة اليهود.

بعد أن دمر الصهاينة بيت الشيخ محرم اضطر للانتقال إلى منطقة سيروب حيث استأجر مسكناً يأوي إليه مع عائلته، وهناك انقطع عن الأنشطة العامة لبعض الأشياء منها:

أ- إن حالة التوتر الأمني، وانتشار الصهاينة وعملائهم لم تكن تسمح بالأنشطة العامة، وذلك خشية أن يرصد المشاركون فيها ويتم اعتقالهم.

ب- إن التطورات التي طرأت على الساحة كانت تستدعي نشاطاً أكثر ملائمة من الأنشطة الدعوية والثقافية والترفيهية التي اعتاد الناس عليها في السبعينات.

ج- كما حال التجاء العديد من الشباب المسلم إلى مدينة بيروت، وصعوبة التواصل معهم بسبب الحواجز والتشديدات الأمنية، دون التعاون على أي نشاط مثمر.

كل هذه الأمور قللت من حركة الشيخ لكنها لم توقفها. فقد كان يتوسل خطب الجمعة لتحريض الناس على عدم الخنوع والاستسلام للعدو، ويذكر بأننا وإن هزمنا عسكرياً واحتلت بلادنا، لكن الواجب يحتم علينا أن لا نمكن العدو من هزيمتنا معنوياً. يجب أن يبقى القلب ينبض بروح الجهاد والتصدي مهما بلغت التضحيات. وإنه لجهاد، نصر أو استشهاد:

"والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون"

منذ ذلك الحين صارت خطب الشيخ المحرك الأبرز لمشاعر المؤمنين حيث وجدوا في خضم الطغيان والجور الصهيوني المدعوم من قبل أذيانهم من الخونة والعملاء رجلاً يقف في وجه التيار، ويصدع بكلمة الحق بجرأة نادرة وعزيمة أكيدة، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يمنعه ظلم المحتل وجوره أن ينطق بكلمة الحق.

وتجاوب الناس مع الشيخ وصار مسجد بطاح خلية نحل تضج بجموع المصلين المتشوقين لسماع هذا النفس الجهادي الذي ينضح بمعاني العزة والرفعة والكرامة، في زمن ظن البعض أن الصهاينة استطاعوا بإرهابهم أن يستأصلوا هذه المعاني. وضاق مسجد بطاح بالمصلين الذين تتراوح أعدادهم بين 500 و550 مصلياً انتشروا في حرم المسجد الصغير، وعند مدخله، وفي مكان الوضوء، ولما ضاق المكان عليهم افترشوا الشارع المؤدي إلى المسجد، مما استدعى أن توضع أبواق إضافية خارج المسجد ليبلغ صوت الخطيب النائر إلى الأذان المتعطشة للكلام الناري، الذي يلامس القلوب، ليفجر الغضب لله والحق، ويعلن ثورة على الطغاة.

لم يقتصر الشيخ محرم على الخطابة والتحريض بل سعى ليرجم كلامه عملاً ضد ظلم الصهاينة وطغيانهم فبادر إلى تنظيم مظاهرة احتجاج ضد الصهاينة وذلك استنكاراً لإقدامهم على اعتقال العديد من الشباب. وكانت صلاة عيد الفطر عام 1983 وخطب الشيخ خطبة العيد وعباً النفوس محرّضاً محمّساً ضد اليهود والعملاء، ثم ناشد جميع المصلين أن يشاركوا في مظاهرة الإحتجاج. وقد كان اليهود وقتها في أوج جبروتهم وكانت مقولة "الجيش الذي لا يقهر" لا تزال تتردد على الألسنة، وتزرع في أذهان الناس صورة أسطورية لهذا الجيش... وكان الناس يخافون من الوقوف في وجه هذا المحتل. لكن الشيخ أراد أن يكسر حاجز الخوف فكانت هذه المظاهرة التي نظمها أول مظاهرة تخرج لتتحدى جبروت الصهاينة وعجبيتهم. وكان للشيخ محرم فضل إطلاقها وقيادتها.

انطلقت جموع المصلين بعد صلاة العيد وسارت في طرقات صيدا القديمة وصولاً إلى بوابة الشاكرية، ومنها باتجاه شارع رياض الصلح، لتبلغ أخيراً ساحة الشهداء. وكان الصهاينة على جنبات الطريق يراقبون المتظاهرين الذين تسلل الخوف إلى قلوب البعض منهم، فصرت ترى عدد الناس يتناقص كلما مضت المسيرة قدماً، حتى إذا ما بلغت ساحة الشهداء كان الجمع يقدر بخمس وعشرين إلى ثلاثين من الرجال والناشئين بعد أن كانوا بالعشرات. وكان الشيخ محرم على رأسهم، وقادهم إلى أن بلغ بهم ساحة الشهداء، هناك وقف الشيخ

عند قبور الشهداء وخطب بالناس معلناً أن درب الجهاد والشهادة هو درب العزة. وكل الدروب الاخرى لن تقودنا إلا إلى الذلة والهوان والضياع.

عزة في مواجهة محاولات الإذلال:

كان داب الصهاينة أن يستدعوا الناس للنزول إلى البحر حيث يجمعونهم كقطعان الماشية، ويعرضونهم على المتعاملين معهم ليتم التأكد من أن أحداً منهم لا ينتمي إلى أي جهة قامت بأعمال مقاومة ضد اليهود. وبناءً على ذلك تعطى لهم التصاريح التي تخولهم التجول في المدينة. ومن شهد تلك المواقف يذكر الساعات الطوال التي قضاها الناس في الشمس بلا طعام أو شراب، ينتظرون فرج الله، ويستجدون التصاريح من الصهاينة. لكن رجلاً كالشيخ محرم ما كان ليضع نفسه المعتزة بعز الله، المتسامية بسمو الإيمان، في مثل هذه المواضع، لذلك رفض أن ينزل إلى البحر لينال التصريح. بل كان يقول بعزة المؤمن كلما سمع نداء الصهاينة للنزول إلى البحر:

"يلي بدو يحكي معي يجي لعندي"

الشيخ محرم يجمع السلاح:

في تلك الفترة صار الناس يتخلصون من أسلحتهم حتى لا تكون سبب اتهامهم بالعمل ضد الصهاينة، فيؤدي ذلك إلى اعتقالهم. وصار مشهد الأسلحة الملقاة على جوانب الطرقات، أو في مكبات النفايات، مشهداً مألوفاً في تلك الفترة. لكن الشيخ محرم كان يتصرف خلافاً للتصرف السائد. لقد كان مع إخوانه جمال حبال ومحمد علي الشريف وغيرهم يجمعون هذه الأسلحة سرّاً ويخفونها في غرفة مسجد بطاح. في تلك الفترة كان مسجد بطاح قد أغلق في وجه المصلين وتحول إلى مأوى للعائلات التي تهدمت بيوتها جراء الإجتياح الصهيوني والقصف العنيف الذي هدم مساكنهم وذلك في آب العام 1982. وكانت غرفة المسجد ذات الباب الواحد قد سترت بخزانة للكتب وضعت على بابها، حتى أن الناظر لا ينتبه إلى الباب المختفي خلف الخزانة، وبالتالي إذا كان لا يعرف المسجد فإنه لن ينتبه لوجود هذه الغرفة التي حولها الشيخ وإخوانه إلى متسودع أسلحة وعزموا على استعمالها لمواجهة اليهود متى سنحت الفرصة. وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد أحسّت إحدى النساء بحركة غريبة في المسجد، وانتبهت إلى وجود تلك الغرفة حين رأت أحد الشباب يجر الخزانة ليكشف عن باب الغرفة، ثم يفتحه ويدخل ما معه من الأسلحة ثم يخرج ليعيد إخفاء مدخل الغرفة بالخزانة. فجزعت وخشيت أن يقدم الصهاينة على اعتقال كل العائلات التي أوت إلى المسجد في حال اقتضاح أمر الأسلحة. لذلك سارعت وأبلغت العدو بنفسها، كبادرة حسن نية، معلنة أن لا علاقة لأحد ممن في المسجد بهذه الأسلحة. وما كان من الصهاينة إلا أن أقدموا على اقتحام المسجد وقلب الخزانة، فظهر باب الغرفة أمامهم فبادروا إلى كسره، فوجدوا الأسلحة مكدسة في الغرفة، فما كان منهم إلا أن صادروها. ولما سألوا عن الذي وضعها تنكر الجميع وزعموا أنها موجودة منذ مدة ولا يعرف من وضعها.

أخبر الشيخ محرم بالذي كان، فاحتاط للأمر، وتواري عن الأنتظار لفترة وأوعز إلى جميع الناشطين معه بضرورة التخفي خشية الإصطدام بالعدو والتعرض للاعتقال.

عودة الشيخ محرم إلى مسجده:

مع مطلع العام 1983، تركت العائلات مسجد بطاح ومضت إلى مكان آخر تأوي إليه. وأعيد افتتاح المسجد بعد إجراء الصيانة اللازمة، وعاد الشيخ محرم ليلهب المشاعر بخطبه النارية متحدياً اليهود وفاضحاً العملاء.

لعل العملاء لم يستسيغوا مهاجمة الشيخ محرم لهم، فعمدوا في يوم من الأيام إلى التسلل خلسة إلى المسجد، حيث صبّ أحدهم الوقود على السجاد وأشعل النار، ثم توارى عن الأنظار. وسرعان ما انتبه البعض إلى ألسنة اللهب والدخان المتصاعد من المسجد فسارعوا إلى إخماد النار، وأبلغوا الشيخ محرم بالذي جرى. سارع الشيخ إلى الحضور، وعلم أن اختيار هذا التوقيت -وكانت تلك ليلة الجمعة- ليس إلا محاولة لتعطيل خطبة الجمعة، لذلك قرر تفويت هذه الفرصة واجتهد بنفسه وعاونته الحاج معتز السالم على إخراج كل ما التهمته النيران من أثاث المسجد، ومن ثم عمداً إلى تنظيفه من آثار الحريق. مضت تلك الليلة وأطل الفجر وكان المسجد عندها مؤهلاً لاستقبال المصلين. تسارعت الساعات، وحان وقت صلاة الجمعة فاعتلى الشيخ محرم المنبر وأعلم الجميع بالذي جرى وفضح العملاء وخبث طويتهم، وأعلن قبوله للتحدي، وعدم استعداده للرضوخ لأساليب التهديد والإرهاب التي يراد منها ثنيه عن مهمته كعالم وداعية مجاهد.

وشاء الله أن تكون حادثة إحراق المسجد دافعاً لمزيد من الثورة بدلاً من أن تكون -كما أراد مخططوها- وسيلة لإخضاع الشيخ وتخويفه.

موقف الشيخ محرم من العملاء:

كان اليهود أجبن من أن يدخلوا أحياء صيدا القديمة رغم تفوقهم عدداً وعدة، وذلك بسبب طبيعة العمران حيث تكثر الطرقات الإلتفافية وتتقارب البيوت، بل وتتصل الأسطح، بحيث يسهل على المجاهدين مهاجمة الدوريات الصهيونية والمسارعة في التواري عن الأنظار عبر الطرق والمداخل التي يعرفونها جيداً ويجهلها اليهود. وكان من خبث الصهاينة أن عهدوا إلى أذيانهم من العملاء مهمة السيطرة على الوضع داخل صيدا القديمة ليكونوا أشبه بكلاب حراسة لأسيادهم الصهاينة. وكان أهل المدينة يتهيبون من الإصطدام بالعملاء لما عرف عنهم من انعدام الضمير، والتجرد من كل القيم الأخلاقية والإنسانية. وكان العملاء يشعرون بنبذ الناس لهم ويخشون أن يؤدي عدم قبول الناس لهم إلى الاعتداء عليهم عبر القيام بعمليات جهادية ضدهم -على اعتبار أنهم صاروا مع الصهاينة في خندق واحد. لذلك كان العملاء مسلحين بشكل دائم وتحركاتهم في الغالب لا تكون إلا في جماعات خشية أن يستفرد الناس بهم ويتمكنوا منهم إن ساروا فرادى.

وفي الوقت الذي كان الواحد من الناس يخفض صوته كلما أراد أن يذكر اليهود وعملاءهم، كان الشيخ محرم كالرعد القاصف، لا يهاب ولا يخشى، يصدع بالحق ويعلن المواقف دون خجل ولا وجل، وهو الأعزل الذي لا يملك من السلاح إلا الكلمة الصادقة والإيمان العميق. بالمقابل كان العملاء يرصدون مواقف الشيخ محرم وخطبه وقد تعود بعضهم الوقوف عند مدخل المسجد أو في جواره كل جمعة، ليرصد حركة المسجد وينظر من يدخل للصلاة فيه وماذا يدور خلال الخطب والدروس من كلام.

المواجهة مع العملاء:

وبدا للعملاء في يوم من الأيام أن يطوقوا المسجد، فتدفقوا بأعداد كبيرة. وبعد أن كان الذين يرصدون المسجد بضعة أشخاص يحملون أسلحتهم دون أن يظهروها للعيان، كانت حركتهم هذه المرة مختلفة عن كل مرة فقد بلغ عدد المحيطين بالمسجد قرابة 25 عميلاً دججوا بالسلاح بشكل علني.

بالمقابل تدفق المصلون إلى المسجد ولاحظوا هذه الحركة غير المعتادة، والشيخ محرم بدوره لاحظ ذلك، لكنه دخل المسجد واعتلى المنبر وبدأت الخطبة.

ترى ماذا يقول الشيخ للناس؟ هل يخفف لهجته وحدته في مواجهة العملاء مراعاة للوضع المتأزم؟ أم يبقى على عادته ثائراً لا يهاب ولا يخشى العملاء وأسيادهم؟

إن كنت تعرف الشيخ محرم فلا بد أنك ستوقع التصعيد والتحدي، لا الاستكانة والمدارة، فهذا هو الشيخ المجاهد الذي أخفى جسده النحيل روح عملاق وقلب ثائر مقدام. وبالفعل كانت خطبة نارية وثار الشيخ كالبركان، وسمى الأشياء بمسمياتها بلا مداراة أو مراوغة. فبعد الحمد والثناء على الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، استشهد الشيخ بالحديث الذي يقول: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جابر فأمره ونهاه فقتله" حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرک. ثم قال بأعلى صوته:

"أيها الإخوة الأعزاء... منذ قليل كان يقف على باب المسجد عميل من عملاء إسرائيل -ولا أدري إذا ما كان لا يزال واقفاً إلى الآن- وهذا العميل بدلاً من أن يقدم ما عنده من طاقات وإمكانات في سبيل قضية فلسطين، أو في سبيل قضية لبنان، أو في سبيل قضية الحق والعدالة... إذا بهذا العميل يتآمر مع اليهود ويسخر ما عنده من إمكانات وطاقات لخدمة اليهود، هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا أرضنا واعتدوا على شعبنا وحاربوا ديننا... وإنني أقول لهذا العميل ولكل العملاء، بل وإنني أقول لأسياده الذين يدفعون له والذين يعمل لحسابهم:

إذا كنتم تظنون أنكم من خلال هذه التصرفات ستخيفوننا... فإني أقول لكم لا، فإن الذي يخاف الله لا يخشى أحداً من العباد لأنه لا يريد إلا مرضات الله... وأما الصعاليك والمسوخ لهم فهم الذين يخافون من الذين يخافون الله عز وجل..."

كان الشيخ بصوته الجهوري كالرعد القاصف، وكانت تكبيرات المصلين تنفجر غضباً وثورة تهتز لها أركان المسجد. وفي الخارج كانت قلوب العملاء ترتعد خوفاً فقد قذف الرعب في قلوبهم واجتاحها الهيبة.

قضيت الصلاة وتحلق الناس حول الشيخ مستعدين للخروج من المسجد وهم يتحسبون لصدام مع العملاء، والهياج والثورة قد دبّت على وجوه الجمع المؤمن. لكن الشيخ نصح بالحكمة في التصرف وطلب ألا يتهور أحد وراح ينشد قائلاً:

أخي أنت حر وراء السدود أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصماً فماذا يضريك كيد العبيد

وكان الناس يرددون النشيد وراءه. ثم خرج الشيخ من المسجد والناس خلفه فتصدى له كبير العملاء، ومد يده يريد أن يصافح الشيخ محرم، فأبى الشيخ أن يصافحه وهنا دار بين العميل والشيخ الحوار التالي:

العميل: ولو يا شيخ محرم، انت شيخ وبتعطي دروس وما بدك تسلم علي...

الشيخ: أنا ما بصافح أمثالك لأنك عميل لليهود والأنجاس. لما تتوب وتصير تخاف الله أنا آتيك بنفسي وأقبل راسك.

وأدار الشيخ ظهره لكبير العملاء باحتقار وقسمات وجهه تتألق بنور الإيمان والعزة.

لم يصدق أحد أن تبلغ جرأة الشيخ هذا الحد، كبير العملاء ومن حوله رجاله المدججون بالسلاح والشيخ يكيل له الكلام اللاذع بلا خوف ولا استكانة... هكذا هم الرجال الذين شمشخوا بالإسلام وشمخت الأمة بهم.

ماذا يفعل العملاء؟ لقد حاولوا التدخل عبر إشهارهم الأسلحة لعلهم يوقعون الرعب في قلوب الشيخ والمصلين، لكن الأجواء المشحونة كانت أعظم من أن تعالج بقوة السلاح... وشموخ الشيخ محرم انعكس ذلاً وخشية على العملاء. فدعاهم كبيرهم للانسحاب، وبالمقابل مضى الشيخ محاطاً بالخلص من المصلين وصولاً إلى سيارته حيث مضى إلى بيته وروحه تحلق في سماء العزة والكرامة.

واليوم وبعد مرور ثمانية عشر عاماً على هذه الحادثة لا يزال هذا الموقف يذكر للشيخ، ويعترف الجميع أن أحداً -بالغ ما بلغ- ما كان ليوقف هذا الموقف في تلك الفترة بسبب الرعب والخنوع الذي دب في قلوب الناس جراء عنجهية العدو وعماله.. لكن الشيخ محرم من معدن عجيب لا يعرف في قاموسه كلمات الخنوع والاستكانة.

الشيخ يتوقع الإعتقال:

كان لأحد المصلين أخ من العملاء، وكان هذا الشاب المؤمن يستغل فرصة قربته من أخيه العميل فيستدرجه في الكلام ليعرف منه بعض ما يدور في خلد العملاء وماذا يعتزمون. وبالفعل عرف أن هناك لائحة تضم قرابة 75 اسماً كلهم من الشباب المؤمن ورواد المساجد، وقد صدر القرار باعتقالهم. فسارع الشاب المؤمن إلى الشيخ محرم يطلعه على هذه المعلومات خاصة وأن اسم الشيخ وبرز تلاميذه على رأس اللائحة ومن الأسماء التي ذكرت في اللائحة: محرم عارفي، عماد أبو شامة، محمود الريش، معتز سالم، وغيرهم ... فما كان من الشيخ إلا أن طلب من الشباب التخفي وعدم التهور وتعريض أنفسهم للاعتقال. أما هو فبقي على سيرته المعتادة لا يخشى غير الله ولا يخضع إلا له سبحانه .

في ذلك الوقت كانت زوجة الشيخ الكريمة دائمة القلق عليه، تستيقظ ليلاً ويهجر النوم مقلتها كلما أحست بدورية لليهود تقتحم بيتاً مجاوراً لتقتاد أحد أفرادها للاعتقال. لكن الشيخ كان مطمئن النفس يقول لها على الدوام: "نامي... حين يأتي دورنا يقرعون بابنا ."

نعم! لم يعرف القلق أو الجزع، رغم تيقنه أنه على رأس المطلوبين... ترى ما سر ذلك؟ لقد كان قلب الشيخ معلقاً بالله، مستسلماً لقضائه وقدره، يذكر على الدوام قوله تعالى: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون".

وبدأت ملحمة العزة والكرامة:

شهد العام 1983 تطورات لم تكن في حساب الصهاينة وعمالهم. نعم لقد استطاعت الآلة العسكرية الصهيونية أن تجتاح لبنان مروراً بجنوبه ووصولاً إلى العاصمة بيروت. كما تمكن هذا الجيش الجرار -الذي حقق توسعاً خطيراً كهذا- من سحق المقاومة التي تصدت له أيام الإجتياح صيف عام 1982... لكن ومع حلول العام 1983 كانت المعطيات قد تغيرت، لقد ظهر بشكل جلي أن الآلة العسكرية الجبارة يقودها جنود ستمتهم الأساسية الجبن والخوف. بالمقابل كانت هناك ثلة من المؤمنين لا يملكون من العتاد والعدة الشيء الكثير... لكنهم كانوا يملكون إيماناً يخفق في قلوبهم، ونفساً تحدثهم بالشهادة في سبيل الله، حتى أن الواحد منهم لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه...

وكانت البداية على يد الشهيد جمال حبال رحمه الله تعالى. لقد أراد الشهيد القائد أن يؤسس نواة العمل الجهادي في مدينة صيدا، فعمل مع إخوانه على شن حرب عصابات طالت دوريات الصهاينة وعناصرها.

لقد اتخذ الشهيد جمال حبال من بيروت مركزاً للتخطيط والتحضير لتلك العمليات. ومع تنفيذ كل ضربة من تلك الضربات الموجعة التي آلمت الصهاينة، كان الشهيد القائد يدخل إلى مدينة صيدا خلسة، فيتصل بإخوانه سرّاً... عندها تحدد الأهداف وتوزع الأدوار والمهام، فالبعض يرصد، والبعض يهاجم... أما المبدأ المعتمد فهو الكر والفر، وبعد انتهاء الهجوم كان المجاهدون يلوذون إلى أماكن سرية بعيدة عن الشبهات، تاركين الصهاينة منشغلين بقتلاهم وجرحاهم.

وتكررت العملية فأتخذ العدو، وأربك إرباكاً شديداً، ولم يغن عنه شيئاً، لا أسلحته المتطورة ولا تفوقه العددي فضلاً عن تعامل الخونة معه. وهكذا بقيت عناصر جيش الاحتلال فريسة لصور "قوات الفجر". هذه القوات التي عازمت مستعينة بالله على تبديد دجي الاحتلال، ليطلع فجر النصر، وتعلو في سماء الوطن آيات النصر والعزة المسطرة بدماء المجاهدين...

وفي شهر كانون الأول من العام 1983، وبعد سلسلة عمليات بطولية آلمت العدو واربكته، تمكنت أجهزة الصهاينة من رصد القائد المجاهد جمال حبال بعد تنفيذه لإحدى العمليات. فقد لجأ مع أخيه المجاهد محمود زهرة إلى منزل الشهيد محمد علي الشريف الكائن في منطقة القياغة. وما كان من العدو إلا أن سارع بتطويق المنطقة وتضييق الخناق عليها ظناً منهم أن المجاهدين الثلاثة فريسة يسهل اقتناصها. لكن الأمر كان خلاف المتوقع حيث بادر المجاهدون بالتصدي للعدو المحتشد، وهناك دارت رحى المعركة التي استمرت طوال الليل إلى أن انتهت مع ساعات الفجر الأولى - قرابة الثانية - من فجر يوم الثلاثاء 1983/12/27، هناك استبسل المجاهدون وثبتوا حتى قضوا شهداء، ومضوا نحو الجنان، بعد أن خطفوا أرواح عدد من جنود العدو بينهم ضابط برتبة ميajor جنرال من قوات المظليين. هذا فضلاً عن الجرحى والخسائر التي طالت الآليات والعتاد...

حملة الإعتقالات:

هزت عملية المجاهدين الثلاثة الكيان الصهيوني هزاً عنيفاً، مما جعله يقود حملة اعتقالات هستيرية طالت العديد من الشباب المسلم، وكان على رأس المعتقلين فضيلة الشيخ محرم عارفي. كيف لا وهو الذي تتلمذ هؤلاء الشهداء على يديه، وبات يعتبر المحرّض والموجه لجهادهم....

تفاصيل حادثة اعتقال الشيخ:

عند مساء يوم الثلاثاء 1983/12/27 كان الشيخ محرم جالساً في بيته وقد لبس ثوب النوم، بينما كانت زوجته في ركن من أركان البيت... فإذا بالباب يقرع بعنف، ومن خلفه صوت يصيح بلهجة غريبة: إفتح... إفتح... يهب الشيخ ليفتح الباب، فيتدفق جمع من الصهاينة إلى داخل البيت. عندها يقيد الشيخ وتعصب عيناه، ويبدأ تفتيش البيت. تسارع زوج الشيخ إلى ستر نفسها، وتخرج إلى غرفة الاستقبال لتجد الشيخ مقيداً، وقد حجز في زاوية من زوايا الغرفة، بينما كان الجند يعيثون في رحاب البيت تخريباً، ولا يدعون خزانة أو زاوية إلا ويبحثون فيها.

وعن أي شيء تراهم يبحثون؟

أعن السلاح والذخائر؟!

لقد فاتهم أن سلاح الشيخ هو الكلمة الصادقة المؤمنة الثائرة، لأنها كانت أبلغ تأثيراً من الأسلحة التقليدية...

ماذا في الحقيقة؟

وتقع عيون الصهاينة على حقيبة يد من نوع سامسونيت كان الشيخ يضع فيها بعض الأوراق الخاصة، لكن الصهاينة ظنوا أنها تحتوي على أوراق خطيرة يمكنهم الإنتفاع بها لضرب العمل الجهادي... فطلبوا من الشيخ أن يفتحها لهم... لكن الشيخ نسي الأرقام.. حاول وحاول، لكن ذاكرته الحديدية خانتها في تلك اللحظة.

طلب الشيخ من زوجته أن تذكره بالأرقام لكن أم سعد الدين أبت التجاوب مع الصهاينة...

لماذا يا أم سعد الدين لم تفصحي عن الأرقام؟

قالت: أريد أن أغيظ الصهاينة مصداق قوله تعالى: "قل موتوا بغيظكم"

وبالفعل اشتد غيظ الصهاينة، وطالت معالجتهم لقفل الحقيبة دون جدوى فما كان منهم إلا أن عملوا على كسرها... لكن النتيجة كانت أن ظفروا بأوراق عادية لا تحوي على أي شيء ينفعهم. عندها اقتاد الصهاينة الشيخ إلى الإعتقال دون أن يسمحوا له حتى بتغيير ثيابه. وتركوا زوج الشيخ التي صدمتها الحادثة، فباتت لا تدري ماذا تفعل.

في سراي صيدا:

حمل الشيخ محرم إلى سراي صيدا الحكومي – وكان العدو الصهيوني قد احتلها واتخذ منها مركزاً له. وهناك ادخل الشيخ إلى غرفة التحقيق وبدأ المحقق يسأل، عساه يظفر من الشيخ بأسماء المجاهدين الذين يعرفهم، أو ينال شيئاً من المعلومات التي قد تسهم في كشف خلايا المجاهدين... لكن الشيخ الذي كان دأبه أن يعلو المنبر ليتكلم بأعلى صوته، وجد أن هذا الموقف هو موقف الصمت والسكون، فأى كلمة يذكرها قد توظف ضد الوطن وضد تلك الثلة المؤمنة التي هبت للذود عن حياضه...

أدرك المحقق أن الشيخ لن يتكلم بسهولة، لذلك لجأ إلى أسلوب خبيث، حاول أن يحطم إصرار الشيخ على التكتم، لكنه أدرك أن تعذيب الشيخ وإجباره على الكلام لن يجدي نفعاً، ولكن لعل الأمر يكون مختلفاً لو كان الذي يعذب إنسان عزيز على قلب الشيخ كزوجه مثلاً؟ لذلك وضعوا الشيخ محرم في غرفة تجاورها غرفة أخرى يسمع منها صوت امرأة تصرخ وتستغيث. وراح المحقق يقتنع الشيخ بأن التي تصرخ هي زوجته، وأنها ستقاسي الأمرين على يد العلوج من رجاله إن لم يتعاون الشيخ ويتكلم، والشيخ حائر بين العاطفة الجياشة والحب الكبير الذي يكنه لزوجته، وبين الواجب الشرعي الذي يمنعه من الكلام والإدلاء بأي شيء يفيد الصهاينة...

وبينما الشيخ في حيرته، وصوت المرأة المستغيثة يطرق مسامعه، فإذا بشعور داخلي يتفجر من أعماقه، فيملأ فؤاده طمأنينة وثقة بالله، يشعر أن في الأمر مكيدة وأن المرأة ليست زوجه – ففعلاً لم تكن زوجته بل كانت خدعة من خدع اليهود للضغط عليه نفسياً. وحتى لو كانت زوجته فالواجب الشرعي مقدم على الوالد والولد والزوج.

سكت الشيخ ولم يدل بأي شيء... حاولوا معه شتى الوسائل، خوفوه، هددوه، بنفسه، بزوجه، بأهله، فما كان منه إلا أن قال: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون".

عندها أيقن العدو أن لا أمل من الشيخ.

الصهاينة يغلقون مسجد بطاح:

بعد التطورات الأخيرة صار مسجد بطاح في نظر الصهاينة منبعاً للتحريض ومعتقلاً للثانين. لذلك آثروا أن يستغلوا فرصة تغييب شيخه المعتقل لإغلاقه ومنع تلاميذ الشيخ من إقامة أي نشاط قد يستغل ضدهم. فأوعز الصهاينة إلى بعض أذنابهم من العملاء، الذين أقدموا على إغلاق المسجد في وجه المصلين.

وبقي المسجد مغلقاً من 27 كانون الثاني 1983 حتى 18 أيار من العام 1984 كما نشر العملاء بعض أعوانهم وعيونهم في جوار المسجد حتى لا يقدم أحد على فتحه من جديد.

ومن الطريف أن ذكر مسجد بطاح -هذا المسجد الصغير المتواضع- صار مرادفاً لذكر المقاومة ضد الصهاينة، ومجرد الصلاة فيه أو ارتياده يجعل المرء مشتبهاً به من قبل الصهاينة، لذلك كان بعض السذج يتخرجون حتى من المرور من الطريق المؤدي إلى المسجد وإذا ما اضطر أحدهم للمرور تراه يسرع خطاه ويلتفت يميناً ويساراً خشية أن يراه أحد.

إعادة افتتاح مسجد بطاح:

بقي المسجد مغلقاً بضعة شهور، ومديرية الأوقاف تفضل إبقاء الوضع على ما هو عليه حيناً من الوقت خشية أن يؤدي افتتاح المسجد أثناء فترة التأزم إلى صدام بين عامة المصلين والعملاء فيقع جراء ذلك ما لا تحمد عقباه...

ومرت الشهور والمسجد مغلق، وفي منتصف شهر أيار فاتح الحاج معتز السالم بعض الأفاضل بضرورة فتح المسجد وعدم الإستسلام للأمر الواقع، لكنهم تخوفوا من ذلك، فقابل تخوفهم بالإصرار على فتحه ليتابع المسجد أداء رسالة شيخه المعتقل...

وفي يوم الجمعة 18 أيار 1984 عازمت ثلة من الشباب على افتتاح المسجد، فخرج الحاج معتز السالم واتجه نحو المسجد فإذا به يلتقي بسماحة قاضي صيدا الشرعي الشيخ أحمد الزين الذي أحس بعزم معتز على شيء ما...فدار الحوار التالي بينهما:

الشيخ أحمد: إلى أين يا معتز؟

معتز: سأفتح المسجد...

الشيخ أحمد (مشجعاً): اتكل على الله.

وبالفعل يقدم معتز على فتح باب المسجد فيتصدى له أحد العملاء ويسأله عن نيته، فيتذرع الحاج معتز بأنه موظف في الأوقاف الإسلامية وان واجبه يحتم عليه أن يكون في مكان خدمته...

يتساهل هذا العميل مع الحاج معتز، ويتركه يفتح فإذا بالمصلين يتوافدون إلى المسجد...وحين يبلغ الحاضرون قرابة الستين من المصلين يقوم الأخ نادر شبلي برفع الأذان، ويرتقي الحاج معتز المنبر ليخطب بالجمع...وكانت تلك أول خطبة جمعة في المسجد منذ اعتقال الشيخ

محرم...هذا وقد خطب الحاج معتز في مسجد بطاح مدة ثلاثة أسابيع إلى أن كلفت مديرية الأوقاف الإسلامية الشيخ ابراهيم اللقيس بالخطابة في هذا المسجد الذي عادت إليه الحياة، لكنه ظل يفتقد خطب ومواقف إمامه الشيخ محرم...

صيда تفتقد شيخها المجاهد وأبناءها البررة:

نعود إلى أعقاب حادثة اعتقال الشيخ محرم، فقد استيقظت صيدا صباح الأربعاء 1983/12/28 لتجد العديد من شبابها قد بات خلف القضبان في المعتقلات الصهيونية. بدأت المدينة تغلي ويجيش الغضب في صدور الشرفاء من أبنائها استنكاراً لهذا الظلم، وبدأت التحركات لتنظيم اعتصام حاشد يعلن فيه موقف المدينة من هذه الاعتقالات...

أحس الصهاينة بالتحركات الهادفة لتنظيم الاعتصام فبدأت محاولات الإرهاب والتخويف لثني رموز المدينة عن المشاركة في هذا الاعتصام لتحجيم آثاره وتقليص صده.

كان سماحة مفتي صيدا والجنوب الشيخ محمد سليم جلال الدين من الذين طالهم الإرهاب الصهيوني حيث داهموا منزله بعد أن أطلقوا النار عند المدخل الخارجي لإحداث جو من الرعب.

قرع الباب بعنف، ففتح سماحته الباب، فإذا بالصهاينة عند العتبة. ما الأمر؟ تفتيش!!

تمالك الشيخ الوقور نفسه، وقاد المسؤول العسكري إلى داخل البيت من غرفة إلى غرفة...

ثم سأل سماحة المفتي المسؤول العسكري: عن ماذا تبحثون!!

فقال المسؤول العسكري: عن الأسلحة...

فقال الشيخ الجليل: لو أنك ذكرت الأمر من البداية، انتظر...

ومضى سماحة المفتي، ثم عاد حاملاً قطعة قماش لف فيها مسدس لم يستعمل منذ سنوات طوال طوال...فالشخص الجليل رجل علم وقانون، وماذا يفعل مثله بالسلاح بعد أن بلغ من الكبر عتياً؟؟

لكن اليهود أرادوا لهذا التصرف أن يكون رسالة لسماحة المفتي عليه يحجم عن المشاركة في الإعتصام الإستنكاري المقرر...

لم يلبث الصهاينة أن غادروا المنزل بعد أن اقتادوا معهم أحد أبناء سماحة المفتي، لكنهم سرعان ما أطلقوا سراحه، فالأمر كما ذكرنا مجرد تهويل وتخويف. مع ذلك لم تكن سماحته هذه الفعلة عن المضي في مشروع الإعتصام.

أطل يوم الجمعة في 1983/12/30، وإذا بمسجد الزعتري يشهد الجموع المحتشدة وعلى رأسهم سماحة المفتي الذي قام فيهم خطيباً، وضمن خطبته كلمات الإستنكار والإحتجاج على العسف الصهيوني. ومما جاء في كلامه، قوله:

إن السلاح الأمضى ضد المحتل هو سلاح الإيمان، وهو سلاح مشروع...

وبعد انقضاء الصلاة بقيت الجموع معتممة، وقد استحال غضبهم إلى ما يشبه الثورة العارمة، وصارت هتافات التحدي تتردد في المسجد على ألسنة المعتصمين. لكن سماحته تدخل ونصح بالهدوء، ليس خوفاً من شيء، بل مراعاة لحرمة المسجد حيث لا يصح الصخب فيه.

وفي تلك الأثناء يأتي خبر عاجل من منزل سماحة المفتي مفاده أن الحاكم العسكري الإسرائيلي قد اتصل به يريد الاعتذار...ولما كان سماحة المفتي خارج البيت بداعي مشاركته في الإعتصام، أعلم الحاكم العسكري أهل البيت أنه سيعاود الإتصال ثانية.

وجد سماحة المفتي أنه من الحكمة أن يتم التعاطي مع هذه المبادرة بشكل جماعي، فأعلم إخوانه العلماء، والنائب نزيه البزري وبعض الفعاليات بالذي كان من الحاكم العسكري، ودعاهم جميعاً للاجتماع في منزله ليصار إلى اتخاذ الموقف المناسب من تلك المبادرة الإسرائيلية...

تم عقد الاجتماع في منزل سماحته، وسرعان ما سمع رنين الهاتف، فإذا به اتصال من الحاكم العسكري للمرة الثانية يعلم المفتي عن الرغبة بالاعتذار على ما كان من أمر تفتيش منزله واعتقال ولده. لكن سماحة المفتي يعلن أن المسألة ليست شخصية لتكون منحصرة باعتذار يوجه لشخصه الكريم...بل هي مسألة متعلقة بمن يمثلهم بحكم موقعه الديني، إنها مسألة تتعلق بالمدينة بأسرها، لذلك فإن الاعتذار الشخصي لا يجدي نفعاً بل لا بد أن يكون الاعتذار موجهاً للمدينة بأسرها...

وفي سبيل وضع صيغة الاعتذار الذي يمكن للمينة أن تقبله يسارع سماحته للإعلان عن اجتماع موسع في اليوم التالي – السبت 1983/12/31 – وبالفعل يتجاوب السادة العلماء والقضاة والسياسيون مع هذه الدعوة ويتم التباحث في الأمر ويتوافق المجتمعون على الآتي:

إن الذي كان من الصهاينة يعتبر إهانة لمشاعر أبناء المدينة الصامدة بأجمعهم، لذلك لا يمكن الاعتذار مقبولاً إلا إذا ترجم بفك الحصار الآثم الذي ضربه الصهاينة على المدينة لخنقها، كما لا بد من إطلاق سراح جميع الأسرى والمعتقلين بما فيهم فضيلة الشيخ محرم عارفي...

ويتم الإتصال بمكتب الحاكم العسكري الصهيوني عبر الهاتف حيث يبلغ ما توافق عليه المجتمعون...

لكن الصهاينة ما كانوا ليطلقوا الأسرى بهذه السهولة، فلغة الإستنكار والمطالبة أثبت التاريخ عدم جدواها مع مثل هؤلاء. وهكذا بقي الأسرى في قبضة العدو الغاشم...وبقي الشيخ محرم غائباً لا يعرف عنه شيء.

أحي هو أم ميت؟

سليم هو أم سقيم؟؟

في أي السجون تراهم جعلوه؟؟؟

أربعة شهور مضت ولا يعرف عنه شيء إطلاقاً، فلا هو مع الموقوفين في صيدا، ولا هو مع المعتقلين في أنصار...لذلك بادرت الجماعة الإسلامية وتجمع العلماء المسلمين إلى تفعيل قضية اختطاف الشيخ من بيته وتغييبه عبر إثارة قضيته من خلال الصحافة اللبنانية أملين أن يسهم ذلك في بقاء قضيته حية خشية أن يغلفها التجاهل أو النسيان...

وطالت فترة الإنقطاع، وزوج الشيخ يتزايد قلقها يوماً بعد يوم، فوساوس الشر تجول في خلدتها ولا تترك للراحة سبيلاً إلى قلبها...

وساوس وأسئلة قضت مضجع الزوجة المخلصة، وجعلت النوم يهجر مقلتيها. وكما كانت الزوجة قلقة كذلك كان أحباب الشيخ.

وشاء الله أن يخفف عن الزوجة الصابرة محتتها، فإذا بها تقرأ هذا الحديث:

"الصدقة تسد سبعين باباً من السوء"

هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف.

فتسارع، إيماناً وتصديقاً برحمة الله وفضله العميم، إلى التصديق بمبلغ من المال بنية أن يكشف الله السوء عن زوجها الشيخ المجاهد... وشاء الله أن تتحقق أمنيتها فإذا برسالة تصل عبر الصليب الأحمر الدولي مؤرخة بتاريخ 1984/3/15 تحمل اسم الشيخ (محرم عارفي) ورقمه (11666) ومكان وجوده (سجن كيشن) في داخل فلسطين المحتلة... ومعنونة بكلمتين اثنتين (بصحة جيدة) لا غير.

وصدق الله القائل:

"ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب"

حلقت روح الزوجة المخلصة من شدة الفرح، وراحت تعلم كل أحباب الشيخ بأمر الرسالة، وأنه بصحة جيدة، ففرح الجميع بسلامة الشيخ المجاهد.